الفصل الخامس

# البُشرى

[ والله لأَعقِدنَّ عقداً ،
لا يكون للشيطان فيه نصيب ]..!

ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح – عمر بن عبد العزيز – . . لِنصاحب الجهد الخارق الذى سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نوراً . .

ها هى ذى الخلافة تقترب منه . .

أتراه يطمع فيها ، أو يريدها . . ؟

كلا . إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده . . ومن عادة خلفاء بنى أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف .

فعَل ذلك « معاوية » حين جعل الحكم ليزيد . . وفعله « يزيد » حين استخلف معاوية الثانى . . ثم فعله مروان حين استخلف ولده « عبد الملك » ، وفعله عبد الملك حين نَحَّى أخاه « عبد العزيز » ، وأخذ البيعة لولده الوليد . .

كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بما تورطت فيه ، قد صارت عبئاً مُبهظاً على كل ذى تُقًى وضمير . . وكانت قَداسة روحه التوّاقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى به شيئاً فشيئاً عن كل مغانم الحياة وزخرفها .

وكان ثَمّة حادث وقع فى أثناء ولايته على الحجاز ، ترك فى نفسه فزعاً شديداً من السلطة والسلطان ، وعاش عمره كله يُغَصّ بمرارته ، ويعجب كيف غُلِب فيه على أمره وتُقاه ! !

أما الحادث ، فخلاصته أنه تلقى كتاباً من الخليفة الوليد يتهم فيه « خُبَيْب بن عبد الله بن الزبير » بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم ، ويأمره بضربه . .

وقام « عمر » بضرب خبيب ضرباً أفضى إلى موته .

وحين أبلغوا « عمر » نبأ موته ، نزل الخبر عليه كالصاعقة بل كأنها السماء انفطرَت ، والكواكب انتثرت ، والقيامة قامت . . ! !

وغشّاه الحادث بحزن قاتل ، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يوماً – لابِساً مُسوحاً سُوداً ، ضارعاً إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه . .

وكشف له هذا الحادث – كما قلنا – عن خطر السلطة والإمارة ، وتذكر قول الرسول عنها .

« إنها نِعْمَتِ المرضعة »

« وبِئست الفاطمة » ! ! !

وقوله عليه السلام :

« إنها فى الدنيا إمارة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلاّ من أخذها بحقها ، وأدّى الذى عليه فيها » . . ! !

رأى كيف وهو يتحرّى العدل والرحمة أعظم التحرّى ، قد ورطته السلطة فى بعض آثامها . .

ولسوف يقضى العمر كله يرزح تحت وقع الندم ، لا تزايل خيالَه صورة ضحيته ، حتى حين يصير خليفة للمسلمين ، ويأتى من معجزات

العدل والورع والتُّقى ما يبدو أبعد من الأساطير . . حتى حينذاك ، لا ينسى ذلك الحادث الوحيد الذى وقع ضد إرادته وضد طبيعته . .

أجل . . سنراه وهو خليفة يطيل البكاء ، فيقول له حَوارِيُّوه المقربون : فيم بكاؤك . وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة . . . ؟

فتزداد دموعه انهماراً ويقول :

« وكيف بِخُبَيْب ؟ ؟ وكيف بِخُبيب ؟ ؟ »

ثم يصيح كالثَّكْلَى :

« إن نجوتُ من خُبيب ، فأنا بخير » . . ! !

لم يكن إذن يطمع فى الخلافة ولا يريدها .

ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يزودها بزاد التقوى ، ويهيئها للقاء الله يوم تلقاه على خير حال ، وأهدَى سبيل . .

وفى هذه الفترة من حياته ، نجد نفسه التوَّاقة تغير مَسارها فتأخذ فى العزوف شيئاً فشيئاً عن الإغراق فى التأنق ، وتتخفف من المناعم والطيبات ، وتَشْغَفُ بالعزلة والتأمل العميق . . ثم نراه يحصر علاقاته المحدودة فى نفَرٍ كريم من العُبَّاد والعلماء والزهاد .

وخلال ذلك تتوثق صلته بـ « رجاء بن حَيْوَة » وكان من علماء التابعين وفُضلائهم ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين . عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه . .

و « رجاء بن حيْوة » شخصية جليلة ، لانملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » إلا أن ننحنى له تحية وتقديراً ؛ فلقد اختارته المقادير — كما سنرى فيما بعد — ليكون السبب الأول والأوثق فى إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز حيث سترى الدنيا منه معجزة الحكم الورِع

العادل الطَّهور . . ! !

فسلام الله ورحمته عليك يا رَجاء . .

* * *

إن العزلة التى أخذت نفس – عمر – تجنح لها ، لم تَسْلَخه عن عالمه ولم تُنْسِه إحساسه بمشاكل دولته وأمته ، ولم تحمله على نفض يديه من مسئولية التحذير .

فى هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه « رجاء بن حيوة » لا يَكُفَّان عن قرْع أجراس الخطر ، وإسداء النصح للخليفة سليمان .

لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأمويين ، أكثر ما ينغّص نفس « عمر » . .

من أجل ذلك صارت كلمتى « العدل والرحمة » تسبيحة عَذْبة على لسانه ، يلهج بها دوماً . ويَصُبُّها فى أسماع الخليفة صَبًّا . .

* * *

وذات يوم ؛ طاف بالخليفة « سليمان » طائف المرض . . وكان قبل مرضه قـد عقد ولاية عهده لولـده « أيوب » ولكن « أيوب » كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات ، فصارت ولاية العهد شاغرة . .

فلما مرض « سليمان » وشعر أنه مرض الموت ، شغله أمر الخلافة .

وتفرَّس وجوه بنيه ، فألفاهم صغاراً . فأمر أن يُلبسوهم أقمِصة الخلافة وأردِيتها ، ويقلدوهم السيوف ليرى – على الطبيعة – كيف يكونون . . ؟ !

وجىء بهم إليه مُزركشين بثياب الخلافة ، مُتوشِّحين سيوفها ، فوجدهم

لا يملأون جانب العين . . فقال آسفاً :

إن بَنِيَّ صِبية صِغار أفلح من كان له كِبار .

وخلا بمشيره الأمين « رجاء بن حَيْوة » ، وراح يقلب معه وجوه النظر ، فقال له رجاء :

«إن مما يحفظك فى قبرك ، ويشفع لك فى أخراك ، أن تستخلف على المسلمين رجلا صالحاً » . .

قال سليمان : ومن عساه يكون . . ؟

وأجاب رجاء : [ عمر بن عبد العزيز ] . . ! !

وتلقى « سليمان » مَشورة رجاء كالبُشرى ، فقد صادفتْ هوى فى نفسه ، بل صادفت عزماً كان يضمره ويُخفيه . .

وهتف سليمان بعبارته المأثورة الباهرة :

« والله ، لأعْقِدَنَّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » ! ! !

لكن كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور ، واقفون للمنصب بالمرصاد . . ؟

هنالك اهتدى « سليمان » إلى الحل ، وهو أن يوصِى لإخوته بولاية العهد بعد « عمر بن عبد العزيز » . .

وسارع « رجاء » لإنجاز الخُطَّة . . وكتب مع الخليفة وصيته .

« بسم الله الرحمن الرحيم . .

« هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، لعمر بن عبد العزيز . .

« إنى قد ولّيتـه الخـلافـة من بعـدى . . ومن بعـده . . يزيـد ابن عبد الملك . .

« فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله . .

« ولا تختلفوا فيطمعَ فيكم . . »

هكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف « عمر » وسُطِّر العقد الذى لن يكون للشيطان فيه نصيب ! !

* * *

وسارع « رجاء » إلى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين لمقابلة الخليفة ، وكان كتاب الخليفة قد طُوى وخُتِم ، وتَواصَى الخليفة ورجاء ألا يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيًّا . .

واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم « سليمان » أن يبايعوا من استخلَفه واستودَع الوثيقة اسمه . . وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يُبايع ، لمن أوصى الخليفة ، فزجره سليمان ؛ فبايعوا جميعاً ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدْس والظنون . . .

* * *

أين كان « ابن عبد العزيز » والأمر يُقضَى ويُبرَم . . ؟ ؟

لقد كان يعود « سليمان » يوماً ، فاستقبله قائلا :

— « يا عمر » . .

« ما أهمَّنى أمر قط ، إلا خَطَرْتَ فيه ببالى » . .

ومن ذلك اليوم ، وهو يُحِسّ شعوراً مُبهماً فى نفسه . شعور التوجس من أن يصنعها سليمان من وراء ظهره ، ويَرزَأه بمسئوليات الخلافة . .

هنا لك ، يسارع إلى حيث يلتقى برجاء بن حَيْوة ، ويقول له متوسلا :

« يا رجاء . .

« إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد . .

« وإنى أناشدك الله إذا ذكَرنى بشىء من ذلك أن تصرفه عنى . .

وإن لم يذكرنى ألاّ تذكُرنى له فى هذا الأمر أبداً » . .

وكان علَى « رجاء » أن يستخدم ذكاءه فى انتزاع هذا الإحساس من نفس « عمر » ، فهو يعلم أنه إذا تحول شعوره هذا إلى مجرد ظن قوىّ بأن الخليفة عهد إليه ، فسيسعى إلى الخليفة معتذراً ومُتنصِّلا . . بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يُعرف له مقر أو مقام . . .

من أجل ذلك أدّى « رجاء » دوره بدهاء عظيم حين أجاب « عمر » قائلا :

« لقد ذهب ظنك مذهباً بعيداً ، ما كنتُ أحسَبُك تذهب إليه . .

« أتظن بنى عبد الملك يُدخلونك فى أمورهم » ؟ !

وتَهلَّلَ وجه عمر . . وانصرف عن رجاء . . الذى تهلَّل وجهه هو الآخر ، وراح يفرك كفيه مغتبطاً مسروراً ، فقد ربح الجولة الأولى مع الهارب من الملك والمجد والخلافة . . ! ! !

* * *

وذهب إليه « هشام بن عبد الملك » أخو الخليفة سليمان ؛ وكان يتطلع إلى المنصب فى رغبة ضارية . .

قال لرجاء : [ يا رجاء . إن لى معك حُرمة ومَوَدّة ، فأنبئنى بهذا الأمر . إن كان صائراً إلىَّ علمت . . وإن كان لغيرى تكلمت . . ولك علىَّ العهد ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً ] . .

وكان جواب الشيخ الجليل له : أن الخليفة قد ائتمنه وأخذ عليه العهد ألا يتكلم . .

وانصرف عنه « هشام » حَيرانَ أسِفاً ، يسائل نفسه :

« إذا كنت قد نُحِّيتُ عنها . فإلى من يا ترى ؟ وهل ستخرج الخلافة من بنى عبد الملك ؟ . . ؟؟ » .

* * *

ويذهب « رجاء » ذات يوم ليعود الخليفة ، فيجده فى اللحظات الأخيرة من حياته ، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيُسَجِّيه . . ويتكتم النبأ فى ثبات وطيد ، مُهَيِّأً الظروف لإعلان الخليفة الجديد ، زافًّا مع إعلانه هذا أعظم البشريات لدين الله ؛ ولدنيا الناس . . . ! ! !

ولْنُصْغ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد :

« . . . وخرجت ؛ فأرسلت إلى كعب بن حامد العبسى – رئيس الشرطة – ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين . .

« فاجتمعوا فى مسجد « دابِق » فقلت لهم : بايعوا . .

« قالوا : قد بايَعْنا مرة ؛ أنبايع أخرى . . ؟ ؟

« قلت لهم : هذه رغبة أمير المؤمنين ؛ فبايعوا على مَن عَهِد إليه فى هذا الكتاب المختوم . .

« فبايَعوا رجُلا ؛ رجلا . .

« فلما بايعوا رأيت أنى قد أحكمتُ الأمر ، فقلت لهم :

إن الخليفة قد مات . .

« ومضيت أقرأ عليهم الكتاب » . . . !

* * *

إنه ما دام النظام المعمول به فى منهج الأمويين هو الاستخلاف ؛ فإن العمـل الذى أنجزه « رجـاء بن حَيوة » لعَظيم جـدّ عظيم . فالرجل الذى اختير للخلافة هذه المرة ؛ ليس ثمة مِن طرازه سِواه . . . إنه رجل . لو أن أروع ما عرف التاريخ الإنسانى كله من ديمقراطية وشُورَى أراد أن يختار له نظيراً لأعياه وجودُ النظير . . ! !

ومع ذلك ، فسوف نراه عما قريب ؛ ينتهز أول فرصة مُواتية ليحاول خَلْع الخلافة من عُنُقِه ، وليرد الأمر إلى المسلمين يختارونَ مَن يشاءون . . ! !

* * *

رأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذى قرأه عليهم رجاء . .

وكان هشام . . فيمن بايع على مضَض . . إذ تقدم من « عمر » وهو يقول :

[ إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذْ نُحيِّتْ عنى : ! ]

فأجابه « عمر » :

« بل ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ صارتْ إلى ، وأنا لها كارِه » ! ! .

ولم يكد يُفيق من غمرة المفاجأة ، حتى راح يَرتجف كعصفور غطّته الثلوج ، واستقبل « رجاء بن حيوة » يقول له فى عتاب :

« ألم أُناشِدْك الله ، يا رجاء » . . ؟ !

ثم سار إلى الخليفة المسجّى ؛ فصلّى عليه ، وشيّعوه إلى مَثواه . .

وعاد يُعزِّى أهل بيته فيه ، ويتلقى فيه العزاء .

وفى الغَداة ، وكان النبأ قد طار إلى كثير من بلاد الشام حيث سارع

خلْق كثيرون إلى « دابق » . . دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاصٌّ بحشود هائلة من الوافدين ، فرأى الخليفة أنها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يتشبث بكاهله .

وفجأة صعد المنبر ، وخطب الناس :

« . . أما بعد ، فقد ابتُليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه ، وعلى غير مَشورة من المسلمين . .

« وإنى أخلع بيعةَ من بايعنى فاختاروا لأنفسكم » . . ! !

ولعله قدَّر أن المفاجأة ستُذهِل الناس ، فتعقِد ألسنتهم عن الكلام ولو لحظات . يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه ، مبرراً صمتهم بقبول تنازله . . !

بيد أنه لم يكد يفرغ من نُطق هذه العبارة : [ فاختاروا لأنفسكم ] حتى كان المسجد يهتز بدَمْدَمَة رهيبة ، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة :

« . . بلْ إياك نختار ، يا أمير المؤمنين » . . ! !

واندفعت الجموع التى بداخل المسجد ، والجموع التى كانت خارجه ، صَوب المنبر الذى كادت تَصهره أنفاسهم الحارة . .

وهبط دَرَجَ المنبر ، محاولا أن يجد له وسط الجموع طريقاً .

كانت أصواتهم الصادعة المُبايعة ، قد حولت المناسبة إلى مِهرجان . .

وراحت أذرعتهم المشرعة تُلوِّح وتَخفُق ، كأنها الرايات الظافرة ، وعيونهم المغتبطة ، تبرق بفرحة العمر وبهجة الحياة . .

وراح – هو – يُجهش بالبكاء . . . ! !